الجزء الأول

رؤية النظام

الفصل الأول

سائح له موقف

شاهدت فى متحف العلوم الرائع فى برشلونة شيئاً معروضاً يمثل «الفوضى». فقد وضع ما يشبه البندول غير المستقيم بحيث يستطيع الزائر إيقاف حركته ثم إطلاقها عند وضع يختاره وبسرعة يختارها. ويستطيع المرء حينئذ مراقبة الحركة المترتبة على ذلك، التى تسجل أيضاً بقلم على فرخ من الورق. ثم يطلب إلى الزائر حينئذ إمساك البندول مرة أخرى ومحاولة محاكاة الوضع والسرعة السابقين تماماً. وبصرف النظر عن الدقة فى الأداء، كانت الحركة اللاحقة مختلفة تماماً عن الحركة فى المرة الأولى.... سألت مدير المتحف عما يفعله الرجلان اللذان يقفان فى ركن الحجرة يراقباننا. فأجاب: «أوه، إن مهمة هذين الهولنديين الانتظار لحمل ,الفوضى، بعيداً». وكان هذا الشئ المعروض فيما يبدو على وشك تفكيكه ونقله إلى أمستردام. غير أننى ما فتئت أتساءل منذ ذلك الوقت عما إذا كانت خدمات هذين الهولنديين مطلوبة بشدة عبر الكرة الأرضية، من جانب منظمات ترغب فى التخلص من الفوضى بها.

ـ فقرة مقتطفة من كتاب «الكوارك والنمر» تأليف مورى جيل–مان .

ما الذى كانت تريد أم فورست جامب قوله؟ إن الحياة مثل علبة الشكولاتة: إنك لن تعرف قط ما الذى ستجده داخلها. أما بالنسبة لى، أنا المولع بالسفر والمراسل الأجنبى فإن الحياة تشبه خدمة الغرف؛ إنك لن تعرف قط ما الذى تجده خارج باب غرفتك.

لنأخذ مثلاً، ليلة 31 ديسمبر عام 1994، عندما بدأت وظيفتى كاتب عمود للشئون الخارجية فى صحيفة *نيويورك تايمز*. وقد بدأت العمود بالكتابة من طوكيو، وعندما وصلت إلى فندق أوكورا بعد رحلة جوية طويلة عبر المحيط الهادى طلبت من خدمة الغرف طلباً واحداً بسيطاً: «من فضلك هل تستطيع أن ترسل لى أربع برتقالات». فأنا أدمن الموالح وكنت أشعر بالحاجة إليها فى تلك اللحظة. وقد تخيلت أن هذا الطلب بسيط حينما اتصلت تليفونياً وبدا لى أن الشخص على الطرف الآخر فهمه تماماً. وبعد عشرين دقيقة سمعت طرقاً على باب غرفتى وأحد العاملين فى خدمة الغرف يقف بالباب فى زيه الرسمى شديد الأناقة، وكانت هناك أمامه عربة عليها مفرش أنيق أبيض. وقد وضع على هذا المفرش أربعة أكواب طويلة مملؤة بعصير البرتقال الطازج، وكل كوب منها يقف فى شموخ ملكى داخل سلطانية صغيرة من الفضة مليئة بالثلج.

قلت للنادل: «لا، لا، أريد برتقالاً ، وليس عصير برتقال». ثم أخذت أمثل له بالإشارة أننى أقضم شيئاً مثل البرتقالة.

قال النادل وهو يومئ برأسه موافقاً: «آه ه ه، بور ـ تقال، بور ـ تقال».

انسحبت بعدها إلى داخل غرفتى وعاودت القيام بعملى. وبعدها بعشرين دقيقة سمعت مرة أخرى طرقاً على الباب. إنه النادل نفسه. وعربة الترولى نفسها المخصصة لخدمة الغرف وعليها ذلك المفرش الأنيق. ولكن كان هناك عليها فى هذه المرة أربعة أطباق وفى كل طبق منها برتقالة منزوعة القشرة ومقطعة إلى مكعبات صغيرة شديدة الانتظام ومرصوصة على صورة مروحة فى كل طبق بشكل يشبه طبق السوشى، الذى لا يجيده إلا اليابانيون.

قلت مرة أخرى وأنا أهز رأسى: «لا، لا، أريد البرتقال كما هو». ومثلت له بيدى شكل الكرة. «فأنا أريد أن أحتفظ بالبرتقالات فى الحجرة حتى آكلها فى أى

وقت بين الوجبات الرئيسية. فلا أستطيع أن آكل أربع برتقالات مقطعة هكذا مرة واحدة. كما أننى لا أستطيع وضعها على هذا النحو داخل الثلاجة، أريد البرتقالات كاملة دون تقطيع».

ومرة أخرى بالغت فى محاكاة شخص يأكل البرتقالة.

قال النادل وهو يومئ برأسه: «آه ه ه، بور ـ تقال ، بور ـ تقال، تريد بور ـ تقالاً كاملاً بدون تقطيع».

ومرت عشرون دقيقة أخرى. ومرة أخرى كانت هناك طرقة على الباب. النادل نفسه. وعربة الترولى نفسها، ولكن عليها فى هذه المرة أربع برتقالات لامعة، وكل واحدة منها فوق طبق خاص بها وبجانبها سكين وشوكة وفوطة. وكان ذلك تقدماً لا بأس به.

قلت وأنا أوقع على الفاتورة، «تمام هكذا، هذا هو ما كنت أريده تماماً».

وفيما النادل يغادر الغرفة، ألقيت نظرة على فاتورة خدمة الغرف. كانت تكلفة البرتقالات الأربع 22 دولاراً. قل بربك كيف أستطيع أن أشرح ذلك للناشر الذى أعمل له؟

بيد أن مغامرتى مع الموالح لم تنته بعد، فبعد مرور أسبوعين، كنت فى هانوى أتناول طعام الغداء وحدى فى حجرة الطعام بفندوق متروبول. وكان ذلك موسم اليوسفى فى ڤيتنام، وكان البائعة الجائلون يبيعون تلالاً من ذلك اليوسفى البرتقالى اللون واللامع، الذى يعتبر ألذ يوسفى شاهدته، فى كل شبر من شوارع هانوى. وفى كل صباح كنت ألتهم منها عدة حبات كإفطار لى. وعندما جاءنى النادل ليعرف طلبى من الحلو قلت إن كل ما أريده هو اليوسفى فقط.

ذهب بعيداً ثم جاءنى بعد بضع دقائق وقال «آسف، لا يوجد يوسفى».

سألته في دهشة «كيف يكون ذلك؟ إنه يوجد هنا في غرفة الطعام منضدة مليئة به كل صباح! من المؤكد أنه يوجد يوسفي في مكان ما هناك في المطبخ؟»

قال: وهو يهز رأسه، «آسف. ربما تحب البطيخ؟»

قلت: «وهو كذلك، آتني ببعض البطيخ».

بعد مرور خمس دقائق عاد النادل وهو يحمل طبقاً فوقه ثلاث حبات يوسفي.

قال: «لقد عثرنا على يوسفي. ولا يوجد بطيخ».

لو كنت أعرف وقتها ما أعرفه الآن لاعتبرت كل ذلك نوعاً من النذير. فأنا أيضاً يمكن أن أجد أشياء كثيرة فوق طبقي أو خارج باب غرفتي مما لم أتوقع أن أجدها وأنا أجوب العالم في عملي لصحيفة ***تايمز***.

أن يكون المرء كاتب عمود في الشئون الخارجية لصحيفة ***نيويورك تايمز*** فذلك في الواقع أفضل وظيفة في العالم. بمعنى أن هناك شخصاً ما يجب أن يشغل أفضل وظيفة، أليس كذلك؟ حسناً، لقد حصلت أنا على هذه الوظيفة. والسبب في تميز هذه الوظيفة هو أنني يجب أن أكون سائحاً له موقف. إذ يجب أن أكون في أي مكان، وفي أي وقت من الأوقات، وأن يكون لي مواقف إزاء ما أرى وأسمع. بيد أن السؤال كان بالنسبة لي وأنا أشرع في هذه الملحمة: أية مواقف؟ ماذا تكون عدساتي في الرؤية، أو المنظور، أو النظام الذي سيسير عليه المقال أو القصة الأعظم التي سوف أنظر من خلالها إلى العالم، والتي ستجعل للأحداث معنى، وأضع أولوياتها، وأبدي رأيي فيها وأساعد القراء على فهمها؟

لقد كانت مهمة من تولوا قبلي هذه الوظيفة أسهل قليلاً على نحو ما. إذ كانت القصة الأعظم الشديدة الوضوح والنظام العالمي المستقر قائمين أمام كل منهم.

فأنا خامس كاتب عمود فى الشئون الخارجية فى تاريخ صحيفة ***نيويورك تايمز***. ففى الواقع كان عنوان «الشئون الخارجية» أقدم عمود فى الصحيفة. وقد بدأت هذا العمود فى عام 1937سيدة رائعة هى آن أوهير ماكورميك، وكان اسمه فى البداية، «فى أوروبا»، ففى تلك الأيام كانت «فى أوروبا»، تعنى الشئون الخارجية لمعظم الأمريكيين، وكان من الطبيعى تماماً أن يكون كاتب العمود الخارجى الوحيد للصحيفة متمركزاً فى القارة الأوروبية. وقد جاء فى النعى الذى نشرته الصحيفة للسيدة ماكورميك فى عام 1954 أنها بدأت عملها مراسلة فى الشئون الخارجية «لأنها زوجة للسيد ماكورميك، المهندس الذى يعمل بمدينة ديتون، وكانت تصحبه فى رحلات الشراء الكثيرة له فى أوروبا». (أصبح النعى الذى تنشره صحيفة ***نيويورك تايمز*** أكثر دقة من الناحية السياسية منذ ذلك الوقت). وكان النظام الدولى الذى تغطيه فى وظيفتها هو تفسخ ميزان القوى الذى أرسته معاهدة ڤيرساى فى أوروبا وبدايات الحرب العالمية الثانية.

وبعد أن خرجت أمريكا من الحرب العالمية الثانية تواجه العالم باعتبارها القوة العظمى المتفوقة ذات المسئوليات العالمية وأصبحت طرفاً فى صراع عالمى للقوى مع الاتحاد السوفيتى تغير عنوان العمود فى عام 1954 إلى «الشئون الخارجية». وأصبح العالم كله فجأة ملعباً لأمريكا وأصبح أمر العالم كله يهمها، لأنه أصبح هناك منافسة مع الاتحاد السوفيتى فى كل ركن من أركان العالم. وأصبح النظام الدولى للحرب الباردة، بما فيه تنافس على النفوذ والتفوق بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى، بين واشنطن وموسكو وبيچنج (بكين)، هو القصة الأعظم التى نظم كتاب الأعمدة الثلاثة التالون لماكورميك آراءهم حولها.

بيد أنه عندما بدأت أنا كتابة العمود فى بداية عام 1995، كانت الحرب الباردة قد انتهت. وانهار سور برلين وأصبح الاتحاد السوفيتى تاريخاً. وكان من حسن طالعى

أن أشهد فى الكرملين واحداً من آخر أنفاس الاتحاد السوفيتى، وكان ذلك فى يوم 16 ديسمبر عام 1991. وكان جيمس بيكر الثالث وزير الخارجية الأمريكى فى ذلك الوقت فى زيارة لموسكو، حين كان بوريس يلتسين يطيح بلطف بميخائيل جورباتشوف إلى خارج السلطة. وكانت كل المحادثات السابقة التى كانت تدور بين بيكر وجورباتشوف تجرى فى قاعة سانت كاترين المذهبة فى الكرملين. وكان يوجد دائماً مشهد منسق للغاية لدخول الصحافة إلى القاعة، إذ ينتظر السيد بيكر ومرافقوه خلف باب خشبى مزدوج هائل الحجم عند أحد طرفى قاعة الكرملين الطويلة، وينتظر جورباتشوف وفريقه خلف الباب الآخر عند الطرف الثانى من القاعة. وبعد ذلك، وبناء على إشارة ما، يفتح البابان فى آن واحد ليدلف الرجلان منهما حيث يتصافحان أمام الكاميرات فى وسط الغرفة. حسناً، وصل بيكر فى ذلك اليوم فى الساعة المحددة، وفتح البابان كلّ على مصراعيه، ودخل يلتسين بدلاً من جورباتشوف. من القادم على العشاء! قال يلتسين لبيكر، «مرحباً بك على الأرض الروسية وفى هذا المبنى الروسى». وقد اجتمع بيكر بالفعل فى وقت لاحق مع جورباتشوف، ولكن كان من الواضح أنه قد حدث انتقال للسلطة. أما نحن، المراسلين الصحفيين الأمريكيين المختصين بوزارة الخارجية الذين جئنا لرصد الحدث، فقد انتهى بنا الأمر إلى قضاء ذلك اليوم بطوله فى الكرملين. وقد هطلت الثلوج بغزارة أثناء وجودنا فى الداخل، وعندما خرجنا فى نهاية الأمر بعد الغروب وجدنا ساحة الكرملين مغطاة بطبقة كثيفة من الثلوج البيضاء. وكانت أحذيتنا، أثناء خروجنا من بوابة سباسكى فى الكرملين، تترك آثارها على الجليد، عندما لاحظت أن العلم الأحمر الذى يوجد عليه المطرقة والسندان ما زال يرفرف فوق سارية الكرملين، وتتسلط عليه أضواء كاشفة كعهده منذ نحو سبعين عاماً. قلت لنفسى: «ربما تكون هذه هى المرة الأخيرة التى أرى فيها ذلك العلم مرتفعاً هناك». وبالفعل، بعد بضعة أسابيع كان قد ذهب ، وذهب معه نظام الحرب الباردة والقصة الأعظم.

غير أن الشئ الذى لم يكن واضحاً لى وأنا عاكف على أداء وظيفتى فى كتابة عمودى الصحفى بعد ذلك بسنوات قليلة هو ما حل محل نظام الحرب الباردة كإطار غالب لتنظيم الشئون الدولية. وهكذا بدأت كتابة عمودى الصحفى بالفعل كسائح بدون موقف، أى مجرد عقل مفتوح. وظللت لعدة سنوات، مثلى مثل الآخرين جميعاً، أشير فقط إلى «عالم ما بعد الحرب الباردة». كنا نعرف أن هناك نظاماً جديداً على وشك الميلاد يمثل إطاراً عاماً مختلفاً للعلاقات الدولية، ولكننا لم نكن نستطيع تعريف ماهيته، ومن ثم فقد كنا نعرفه بما ليس فيه. فهو لم يكن الحرب الباردة. لذلك فقد أطلقنا عليه اسم عالم ما بعد الحرب الباردة.

غير أننى كلما زادت أسفارى تبين لى أن هذا النظام له منطقه الخاص ويستحق أن يكون له اسم خاص به: «العولمة». والعولمة ليست ظاهرة. وليست مجرد اتجاه عابر. فاليوم أصبح النظام الدولى العلوى يشكل السياسات الداخلية والعلاقات الخارجية لكل دولة فى العالم تقريباً، ونحن بحاجة إلى أن نفهمه على هذا النحو.

عندما أتكلم عن «نظام الحرب الباردة» و«نظام العولمة» فماذا أعنى بذلك؟

أعنى أن الحرب الباردة، كنظام دولى، كان لها هيكلها القوى الخاص بها: التوازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. وكانت للحرب الباردة قواعدها الخاصة بها: فى مجال العلاقات الخارجية، لايمكن لأى من القوتين العظميين التعدى على مجال نفوذ الأخرى. وفى مجال الاقتصاد، لابد أن تركز البلدان الأقل تقدماً جهودها على رعاية صناعاتها الوطنية، وأن تركز الدول النامية على زيادة النمو عن طريق الصادرات، والدول الشيوعية على الاكتفاء الذاتى، والاقتصاديات الغربية على التجارة المقننة. وكانت للحرب الباردة أفكارها الخاصة السائدة: الصدام بين الشيوعية والرأسمالية، بالإضافة إلى حالة الانفراج فى العلاقات وعدم الانحياز والبرويسترويكا.

وكانت للحرب الباردة اتجاهاتها الديموجرافية الخاصة بها: تجميد حركة انتقال الأفراد من الشرق إلى الغرب بفعل الستار الحديدى إلى حد كبير، بيد أن الحركة من الجنوب إلى الشمال كانت فى تدفق أكثر اضطراداً. وكانت للحرب الباردة المنظور الخاص بها تجاه العالم: العالم عبارة عن مساحة مقسمة إلى المعسكر الشرقى، والمعسكر الغربى، والمعسكر المحايد، وكانت كل دولة من دول العالم ضمن واحد من هذه المعسكرات. وكانت للحرب الباردة التكنولوجيا الخاصة بها: كانت الأسلحة النووية والثورة الصناعية الثانية مسيطرتين، غير أن المطرقة والسندان ظلا بالنسبة للكثيرين من الناس فى البلدان النامية هما الأداتين الأكثر أهمية. وكانت للحرب الباردة مقياسها الخاص: ثقل قذف الصواريخ النووية. وأخيراً، كانت للحرب الباردة أسباب القلق الخاصة بها: الخراب النووى. وبالنظر إلى هذه العناصر مجتمعة نجد أن نظام الحرب الباردة ذاك أثر فى السياسات الداخلية والعلاقات الخارجية لكل دولة من دول العالم تقريباً. إن نظام الحرب الباردة لم يشكل كل شئ، ولكنه شكل كثيراً من الأشياء.

وحقبة العولمة اليوم التى حلت محل الحرب الباردة هى أيضاً نظام دولى مماثل، ولكن له صفاته الفريدة الخاصة به.

أول كل شئ إن نظام العولمة، على عكس نظام الحرب الباردة، ليس نظاماً جامداً، ولكنه عملية ديناميكية مستمرة: العولمة تنطوى على ذلك التكامل الصارم فى الأسواق، وفى الدول الأمم، وفى التكنولوجيات إلى درجة لم تحدث من قبل، وبطريقة تمكن الأفراد والشركات والدول الأمم، من التجول حول العالم والوصول إلى مسافات أبعد وبصورة أسرع وأعمق وأرخص من أى وقت مضى، وبطريقة من شأنها أن تفرز أيضاً ردة قوية من جانب أولئك الذين تعرضوا لمعاملة وحشية أو فاتهم ركب ذلك النظام الجديد.

إن الفكرة الدافعة وراء العولمة هى رأسمالية السوق الحرة؛ إذ كلما تركت قوى السوق هى التى تحكم وكلما فتحت أبواب اقتصادك أمام التجارة الحرة والمنافسة، أصبح اقتصادك أكثر كفاءة وازدهاراً. والعولمة تعنى انتشار رأسمالية السوق الحرة إلى كل دولة تقريباً فى العالم. والعولمة أيضاً لها مجموعة خاصة بها من القوانين الاقتصادية ـ قوانين تدور حول انفتاح اقتصاد كل دولة وإلغاء القوانين المنظمة له وخصخصته.

والعولمة، على عكس نظام الحرب الباردة، لها ثقافتها الغالبة الخاصة بها، وهذه الثقافة تجعلها تميل نحو إيجاد التجانس. كان هذا الاتجاه نحو التجانس الثقافى فى الحقب السابقة يحدث على نطاق إقليمى ـ الهيلينية فى الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط تحت حكم الإغريق، أو أتركة آسيا الوسطى وشمال أفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط تحت الحكم العثمانى، أو التأثير الروسى فى شرق أوروبا ووسطها وأجزاء من آسيا الأوروبية فى ظل الاتحاد السوفيتى. العولمة، من الناحية الثقافية، هى إلى حد بعيد، ولكن ليس بصورة شاملة، انتشار للأمركة، بدءاً من البيج ماك والأيماك وانتهاء بميكى ماوس، على نطاق يشمل العالم.

والعولمة لها تكنولوجياتها المحددة الخاصة بها: دنيا الكمبيوتر، تصغير الأشياء إلى منمنمات، والرقميات، والاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية، وبصريات الألياف والإنترنت. وقد ساعدت هذه التكنولوجيات على إيجاد المنظور الذى يحدد العولمة. فإذا كان المنظور الذى يحدد عالم الحرب الباردة هو «الانقسام» فالمنظور الذى يحدد العولمة هو «التكامل». كان الرمز لنظام الحرب الباردة هو السور الذى يقسم الجميع. أما رمز نظام العولمة فهو شبكة الإنترنت العالمية التى توحد بين الجميع. كانت الوثيقة التى تحدد نظام الحرب الباردة هى «المعاهدة». أما الوثيقة التى تحدد نظام العولمة فهى «الصفقة».

وما أن تقفز دولة ما إلى نظام العولمة، حتى تبدأ الصفوة فيها فى إدماج منظور التكامل هذا فى الداخل، وتحاول دائماً تحديد موقع بلادها فى إطار عالمى. كنت فى زيارة لعمان، عاصمة الأردن فى صيف عام 1998، وكنت فى فندق إنتركونتيننتال أحتسى القهوة مع صديقى رامى خورى، وهو أحد كتاب الأعمدة السياسية البارزين فى الأردن. جلسنا معاً وسألته: ما الجديد؟ وكان أول شئ قاله لى هو: «لقد أضيفت الأردن من توها إلى نشرة أخبار الأرصاد الجوية فى شبكة سى إن إن». إن ما قاله رامى يعنى أنه من المهم بالنسبة للأردن أن تعرف هذه المؤسسات، التى يشمل تفكيرها العالم كله، أن ثمة جدوى الآن من معرفة حالة الطقس فى عمان. فهذا يجعل الأردنيين يشعرون بمزيد من الأهمية ويقدم لهم الأمل بتحقيق المزيد من الدخل من زيادة السائحين والزائرين من العالم. وفى اليوم التالى لالتقائى برامى، تصادف أن ذهبت إلى إسرائيل وتقابلت مع جاكوب فرينكل محافظ البنك المركزى الإسرائيلى والاقتصادى المتدرب فى جامعة شيكاجو. ولاحظ فرينكل أنه هو أيضاً يمر بتغيير فى المنظور: «كنا من قبل، عندما نتحدث عن الاقتصاد الكلى، نبدأ بنظرة على الأسواق المحلية، والنظام المالى المحلى، والعلاقة المتبادلة بينهما، ثم ننظر بعد ذلك، وكنوع من التفكير العرضى، فى الاقتصاد الدولى. كان هناك شعور بأن ما نصنعه هو فى الدرجة الأولى شئ يخصنا ثم يوجد بعد ذلك بعض المنافذ التى سوف نبيع فيها فى الخارج. والآن أصبح المنظور معكوساً. إننا لن نسأل عن الأسواق التى يجب أن نصدر إليها، بعد أن نحدد الأشياء التى ننتجها، بل علينا أولاً أن ندرس الإطار العالمى الذى نعمل من خلاله ثم نقرر بعد ذلك ماذا ننتج. إن ذلك يغير منظورك بأسره».

ولئن كان المقياس الذى تعرف به الحرب الباردة هو الثقل ولا سيما ثقل قذف الصواريخ ـ إلا أن المقياس الذى يعرف به نظام العولمة هو السرعة: سرعة التجارة والسفر والاتصال والابتكار. فالحرب الباردة كانت تتعلق بمعادلة الكتلة والطاقة لأينشتاين،

$e= mc^2$ (الطاقة = مربع الكتلة). أما العولمة فتتعلق بقانون مور، الذى ينص على أن القوة الحاسبة لشذرات السيليكون سوف تتضاعف كل فترة تتفاوت بين ثمانية عشر شهراً وأربعة وعشرين شهراً. فى الحرب الباردة، كان السؤال الأكثر ترديداً هو: «ما مدى ضخامة صاروخك؟» أما فى العولمة، فالسؤال الأكثر ترديداً هو: «ما مدى سرعة المودم لديك؟»

ولئن كان الاقتصاديان اللذان يعرفان نظام الحرب الباردة هما كارل ماركس وجون مينارد كينز، وكان كل منهما يرغب بطريقته الخاصة فى ترويض الرأسمالية، فإن الاقتصاديين اللذين يحددان نظام العولمة هما جوزيف شومبيتر وآندى جروف المدير التنفيذى الأول السابق لشركة إنتل، وهما اللذان يفضلان إطلاق العنان للرأسمالية. لقد عبر شومبيتر وزير المالية النمساوى السابق والأستاذ بكلية الأعمال فى جامعة هارفارد عن وجهة نظره فى كتابه الكلاسيكى ***الرأسمالية والاشتراكية والديموقراطية***، ومؤداها أن جوهر الرأسمالية هو عملية «التدمير الخلاق» ـ أى دورة دائمة من تدمير المنتج أو الخدمة القديمة أو الأقل كفاءة وإحلال الجديد والأكثر كفاءة محله. أما آندى جروف فقد استعار نظرة شومبيتر الثاقبة «لن يكتب البقاء إلا للمجنون بالاضطهاد» عنواناً لكتابه عن الحياة فى وادى السيليكون، وجعله من نواح عديدة نموذج العمل لرأسمالية العولمة. وعمل جروف على انتشار وجهة النظر القائلة بأن الابتكارات المذهلة التى من شأنها تغيير شكل الصناعة تحدث الآن بصورة أسرع وأسرع. إذ بفضل تلك الإنجازات التكنولوجية الكبرى، أصبحت الآن سرعة البرق هى السرعة، التى من شأنها أن تجعل من أحدث اختراعاتك شيئاً عفا عليه الزمن أو تحوله إلى مجرد سلعة. ولذلك، فإن من لديهم عقدة الاضطهاد وحدهم هم أولئك الذين يتلفتون دائماً ـ حولهم فى ريبة ليعرفوا من الذين يبتكرون شيئاً جديداً وبالتالى سوف يدمرونهم ومن ثم فلابد أن يظلوا متقدمين عليهم بخطوة، هؤلاء هم الذين سيكتب لهم البقاء. ولسوف يكتب الازدهار فى عصر العولمة لتلك الدول التى سترغب أكثر

من غيرها فى السماح للرأسمالية بالقضاء فوراً على الشركات المتعثرة بحيث يستطيع المال أن يتحرر ويوجه إلى الشركات الأكثر ابتكاراً، أما تلك الدول التى ستعتمد على حكوماتها فى حمايتها من ذلك التدمير الخلاق فسوف تتخلف عن الركب فى هذه الحقبة.

لقد قدم جيمس سورويكى، الكاتب الصحفى فى شئون الأعمال الحرة بمجلة ***سليت*** فى عرضه لكتاب جروف تلخيصاً دقيقاً للعامل المشترك بين شومبيتر وجروف الذى يعتبر جوهر اقتصاديات العولمة. إنها تلك الفكرة القائلة بأن «الابتكار يحل محل التقليد. ويحل الحاضر وربما المستقبل محل الماضى. لا شئ فى أهمية ما سيأتى بعد، ولن يصل ما سيأتى بعد إلا بعد الإطاحة بما هو موجود الآن. ولئن كان ذلك يجعل من هذا النظام مكاناً رائعاً للابتكار والتجديد، فإنه يجعله مكاناً يصعب العيش فيه، لأن الناس يفضلون نوعاً ما من الشعور بالأمان تجاه المستقبل على حياة العيش فيها محاط بالشكوك باستمرار تقريباً .... إننا لسنا مجبرين على إعادة صياغة علاقاتنا مع أولئك المقربين منا بصورة منتظمة. ومع ذلك فإن هذا بالتحديد ما يرى شومبيتر وجروف من بعده أنه أمر ضرورى لتحقيق الازدهار (اليوم)».

فى الواقع إذا كانت الحرب الباردة نوعاً من الرياضة فإنها تكون أشبه بمصارعة السومو، يقول مايكل ماندلبوم أستاذ الشئون الخارجية بجامعة جونز هوبكنز. «إنها عبارة عن رجلين بدينين ضخمى الجثة فى حلبة، يقومان بكل أنواع الأوضاع والطقوس وحركات الأرجل الراقصة، ولكن لا يوجد بينهما فى الواقع سوى النذر اليسير من الاتصال، حتى نهاية المباراة، عندما يحتدم الصراع بينهما لبرهة وجيزة ويدفع الخاسر إلى خارج الحلبة، ولكن لا تحدث أية خسائر فى الأرواح».

وعلى العكس إذا كانت العولمة نوعاً من الرياضة فإنها ستكون أشبه بسباق المائة متر المستمر مراراً وتكراراً. ولا يهم عدد المرات التى تفوز فيها، وإنما عليك الاشتراك

فى سباق اليوم التالى. أما إذا خسرت بواقع واحد على مائة من الثانية فإن الخسارة ستكون وكأنها بواقع ساعة. (ما عليك إلا أن تسأل فى ذلك الشركات متعددة الجنسية فى فرنسا. ففى عام 1999، تغيرت قوانين العمل الفرنسية بحيث أصبحت تتطلب ـ ***تتطلب*** ـ من كل صاحب عمل تنفيذ خفض لساعات العمل الأسبوعية القانونية من 39 ساعة إلى 35 ساعة، وبدون خفض فى الأجور. وقد سعت كثير من الشركات الفرنسية جاهدة للانتقال من فرنسا بسبب أثر ذلك فى الإنتاجية فى سوق عالمية. وقد صرح هنرى تييرى، مدير الموارد البشرية فى شركة طومسون ـ سى إس إف للاتصالات، وهى شركة لإنتاج التكنولوجيا المتقدمة يقع مقرها فى إحدى ضواحى باريس لصحيفة ***واشنطن بوست*** بقوله: «إننا نعيش فى ظل منافسة تشمل العالم أجمع. وإذا فقدنا نقطة واحدة فى الإنتاجية فسوف نفقد طلبيات. وإذا فرض علينا تنفيذ قرار العمل 35 ساعة فسوف يكون ذلك بمثابة أن تطلب من الرياضيين الفرنسيين الجرى فى سباق 100متر وهم يرتدون زعانف فى أرجلهم، ولن تكون لديهم أية فرصة للفوز بميدالية»).

إذا أعدنا صياغة ما قاله المنظر السياسى الألمانى كارل شميت فقد كانت الحرب الباردة عالماً من «الأصدقاء» و «الأعداء». أما عالم العولمة فهو على العكس يميل إلى تحويل كل الأصدقاء والأعداء إلى «متنافسين».

ولئن كان القلق الذى تُعرَّف به الحرب الباردة هو الخوف من الفناء على يد عدو تعرفونه جميعاً معرفة جيدة فى ظل صراع عالمى محدد وثابت، فإن القلق الذى تُعرَّف به العولمة هو الخوف من ذلك التغير السريع من عدو لا تستطيع أن تراه أو تلمسه أو تحسه، وهو إحساس بأن وظيفتك أو المجتمع الذى تعيش فيه أو مكان العمل يمكن أن يتغير فى أى لحظة بفعل قوى اقتصادية وتكنولوجية مجهولة صفتها الوحيدة هى عدم الثبات.

فى الحرب الباردة سعينا إلى إقامة الخط الساخن بين البيت الأبيض والكرملين، وهو ما يرمز إلى أننا جميعاً منقسمون، ولكن هناك على الأقل من يتولى المسئولية: القوتان العظميان. أما فى حقبة العولمة فإننا نسعى من أجل الوصول إلى الإنترنت، وهو ما يرمز إلى أننا جميعاً على اتصال ولكن لا يوجد من هو مسئول. ولقد كان النظام الدفاعى الذى تُعرَّف به الحرب الباردة هو الرادار، وذلك لكشف التهديدات القادمة من الجهة الأخرى من السور. أما النظام الدفاعى الذى تعّرف به حقبة العولمة فهو جهاز الأشعة السينية لكشف التهديدات القادمة من الداخل.

وللعولمة أيضاً طرازها الديموجرافى الخاص بها، وهو التسارع المستمر فى حركة الناس من المناطق الريفية وأساليب الحياة الزراعية إلى المناطق الحضرية وأساليب الحياة الحضرية شديدة الارتباط بالموضة، والطعام، والأسواق واتجاهات التسلية السائدة فى العالم.

وأخيراً، والأهم من أى شئ، أن العولمة لها هيكل القوة الذى تعّرف به، والذى يتميز بأنه أكثر تركيباً من هيكل الحرب الباردة. فقد اقتصر بناء نظام الحرب الباردة على الدول الأمم وتحقق له التوازن عند المركز بالقوتين العظميين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

أما نظام العولمة فهو على العكس قائم على أساس ثلاثة توازنات تتداخل مع بعضها بعض وتؤثر فى بعضها بعض. التوازن الأول يتمثل فى التوازن التقليدى بين الدول الأمم. ففى نظام العولمة أصبحت الولايات المتحدة الآن القوة المسيطرة الوحيدة وكل الأمم الأخرى تابعة لها بدرجة أو بأخرى. وما زال التوازن فى القوى بين الولايات المتحدة والدول الأخرى مهماً فى تحقيق الاستقرار لهذا النظام. كما إنه يفسر الكثير من الأنباء التى تقرأها على الصفحة الأولى فى الصحف، سواء كان ذلك عن احتواء

العراق في الشرق الأوسط أو في توسيع حلف شمال الأطلنطي في وسط أوروبا على حساب روسيا.

التوازن الثاني في نظام العولمة هو بين الدول الأم والأسواق العالمية. فهذه الأسواق العالمية تقوم على ملايين المستثمرين الذين يحركون أموالهم حول العالم بمجرد الضغط على فأر الكمبيوتر (الماوس). وأنا أسميهم «القطيع الإلكتروني»، وهذا القطيع يتجمع في المراكز المالية العالمية الرئيسة، مثل: وول ستريت، وهونج كونج، ولندن، وفرانكفورت، التي أسميها «أسواق السوبر ماركت». ومن الممكن أن تؤثر مواقف وتصرفات القطيع الإلكتروني والسوبر ماركت تأثيراً هائلاً في الدول الأم اليوم، بما قد يصل حتى إلى التسبب في إسقاط الحكومات. ولن يستطيع المرء فهم ما ينشر في الصفحة الأولى للصحف اليوم، سواء كانت تلك أنباء إسقاط سوهارتو في إندونيسيا أو الانهيار الداخلي في روسيا أو السياسة النقدية للولايات المتحدة، ما لم يدخل أسواق السوبر ماركت في تحليله لهذه الأحداث.

إن الولايات المتحدة تستطيع تدميرك بالقنابل، والسوبر ماركت يستطيع تدميرك بخفض قيمة أسهمك. والولايات المتحدة هي اللاعب الرئيس في المحافظة على لوحة لعبة شطرنج العولمة، ولكنها ليست وحدها التي تؤثر في التحركات فوق لوحة اللعب. إن لوحة لعب شطرنج العولمة اليوم تشبه كثيراً لوحة أويجا Ouija – حيث تتحرك القطعة أحياناً فوق اللوحة بوضوح بيد القوة العظمى، وأحياناً تحركها أيدي السوبر ماركت الخفية.

والتوازن الثالث الذي يجب أن توليه اهتمامك في نظام العولمة، وهو أحدث التوازنات على الإطلاق، هو التوازن بين الأفراد والدول الأم؛ إذ إنه نظراً لأن العولمة حطمت الكثير من الأسوار التي كانت تحد من الحركة والوصول إلى الناس،

ونظراً لأنها ربطت العالم معاً في شبكة اتصالات عالمية، فقد أعطت مزيداً من القوة للأفراد تمكنهم من التأثير في الأسواق وفي الدول الأمم على السواء أكثر من أي وقت مضى، ولذلك، فما لديك الآن ليست قوة عظمى فقط، وليست أسواق السوبر ماركت فقط، وإنما لديك أيضاً أفراد اكتسبوا قوة عظمى حسبما سأوضح لاحقاً في هذا الكتاب. وبعض هؤلاء الأفراد ممن اكتسبوا قوة عظمى غاضبون إلى حد بعيد، وبعضهم رائع إلى حد بعيد، غير أنهم جميعاً قادرون الآن على العمل مباشرة على المسرح العالمي بدون الوساطة التقليدية للحكومات أو الشركات أو أي مؤسسات عامة أو خاصة أخرى.

لقد استطاعت منظمة إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى -وهي منظمة تضم مجموعة صغيرة من الرجال ومقرها جرينيتش بولاية كونيكتيكت، وبدون علم الولايات المتحدة- القيام بمضاربات مالية في أنحاء العالم تفوق في قيمتها جميع الاحتياطي الصيني من العملات الأجنبية.

ونالت جودي وليامز جائزة نوبل للسلام لعام 1997 لإسهامها في الحظر الدولي على الألغام الأرضية. استطاعت تحقيق هذا الحظر ليس فقط بدون مؤازرة حكومية كبيرة، بل وأيضاً في ظل معارضة من القوى الكبرى الخمس في العالم. وماذا قالت عن سلاحها السري الذي استخدمته في تنظيم ألف جماعة مختلفة من جماعات حقوق الإنسان والرقابة على التسلح في القارات الست؟ «إنه البريد الإلكتروني E-mail».

ما زالت الدول الأمم والقوة العظمى الأمريكية بصفة خاصة لها أهمية هائلة اليوم، ولكن أسواق السوبر ماركت والأفراد الذي اكتسبوا قوة عظمى لهم أيضاً هذه الأهمية الآن ولن يستطيع المرء أبداً فهم نظام العولمة، ولا الصفحة الأولى في

الصحيفة الصباحية، ما لم يعتبرها نوعاً من التفاعل المركب بين هؤلاء الممثلين الثلاثة: دول تتصارع ضد دول، ودول تتصارع ضد أسواق السوبر ماركت، ودول تتصارع ضد الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى.

لقد استغرقنا جميعاً وقتاً طويلاً فى وضع نظام العولمة تحت الفحص الدقيق وتقدير مفاهيمه الضمنية. وقد كان علىّ، مثلى مثل كل الآخرين الذين يحاولون التكيف معه، أن أعيد تدريب نفسى بالفعل وأن أطور لنفسى عدسات جديدة لرؤيته. ودعنى أبدأ باعتراف كنت أتوق إلى إلقاء عبئه عن كاهلى منذ فترة طويلة، طويلة، حتى أستطيع أن أشرح كيف حققت ذلك. فهل أنت على استعداد؟ إليك الاعتراف: لقد اعتدت جمع تقارير الطقس من بيروت.

حسناً، ولكننى فى الواقع لم أكن أجمعها. لأن ذلك سيكون التعبير الخاطئ. كنت «أضع تقديراتها». كان ذلك فى عام 1979 وكنت أعمل مراسلاً مبتدئاً فى بيروت لوكالة أنباء يونايتد برس إنترناشيونال (يو بى آى UPI). وكان يتعين على كثيراً أن أعمل فى الوردية المتأخرة من الليل، ومن بين مسئوليات من يعمل حتى وقت متأخر أن يرسل تقريراً عن الطقس من بيروت لإدراجه ضمن تقرير وكالة يو بى آى عن الطقس فى أنحاء العالم لكى يرسل إلى الصحف كل يوم مع درجات الحرارة العظمى والصغرى. وكانت المشكلة الوحيدة تتمثل فى أنه لم يكن هناك خبير للأرصاد الجوية فى بيروت أو على الأقل ليس معروفاً لى. وكان هذا البلد فى خضم حرب أهلية فمن ذا الذى يعبأ بدرجة الحرارة؟ كان الناس سعداء لمجرد أنهم أحياء. وكانت درجة الحرارة الوحيدة التى تهم المرء فى بيروت فى تلك الأيام هى حرارتك أنت شخصياً ـ 98.6 درجة فهرنهيت(37° س). ومن ثم كنت أقدر كثيراً درجة الحرارة باستفتاء الشخص الوحيد الموجود. وكانت عملية جمع تقرير الطقس تتضمن أساساً صياحى عبر القاعة قائلاً، «هاى، أحمد، ماذا عن الجو عندك فى الخارج اليوم؟»

وقد يرد أحمد أو سونيا أو داوود صائحاً «يعنى! حار نوعاً ما».

أسأل: «حوالى 90 درجة؟» ويأتينى الرد: «بالتأكيد، مستر توماس، كلامك صحيح». أو «شئ كهذا» وهكذا أكتب فى تقريرى «الدرجة العظمى 90» ثم إننى قد أسأل فى وقت لاحق! «هل الجو بارد نوعاً ما فى الخارج؟» ويأتينى الرد: «بالتأكيد مستر توماس»، ثم أسأل: حوالى 72درجة، فى رأيك؟» ويأتينى الرد؛ «بالتأكيد مستر توماس، كلامك صحيح». وهكذا أكتب أنا فى التقرير «الدرجة الصغرى 72». وعلى هذا النحوكان تقرير الطقس يرسل من بيروت.

بعد ذلك بعدة سنوات كنت أعود بالذاكرة إلى هذه اللحظات التى كنت أجد نفسى فيها أعمل فى القسم الاقتصادى والأعمال بصحيفة ***نيويورك تايمز***. كانت توكل إلىّ أحياناً مهمة كتابة الأخبار المتعلقة بالأسعار اليومية للدولار أو أسعار الأسهم فى البورصة، وكان علىّ أن أقوم بجولة بين السماسرة بعد إقفال الأسواق لمعرفة سعر الإقفال للدولار مقابل العملات الرئيسية، أو للتأكد من سبب انخفاض أو ارتفاع مؤشر داو جونز لمتوسط أسعار الأسهم الصناعية الكبرى. وكان مما يثير دهشتى دائماً أنه أيا كان اتجاه تحرك الأسواق، أو انخفاض أو ارتفاع سعر الدولار، فهناك دائماً أحد المحللين الذين لديهم ما يقولونه من بليغ القول فى شرح السبب فى أن المعاملات التى بلغت قيمتها 1.2 تريليون دولار والتى تمثلت فى القارات الست على مدار أربع وعشرين منطقة زمنية مختلفة قد أسفرت عن انخفاض سعر الدولار أو ارتفاعه مقابل الين اليابانى بواقع نصف بنس. وكنا جميعاً نصدق هذا التفسير. ولكن هناك فى مكان ما من مؤخرة رأسى اعتدت أن أتساءل ماذا لو كان هؤلاء المعلقون يحاولون جرّ رجلى فحسب. فى مكان ما من مؤخرة رأسى اعتدت أن أتساءل ماذا لو كان ذلك مجرد نسخة وول ستريت من تقرير الطقس الذى يرسل من بيروت، حيث يوجد ثمة شبخص يصيح عبر القاعة فى مكاتب ميريل لينش أو پينوبير بشئ على غرار، «هاى،

أحمد، لماذا انخفض سعر الدولار اليوم؟» وأيا كان الرد القادم من الشخص الذى تصادف مروره سواء كان الساعى المختص بالأسهم أو السكرتير أو أى سمسار، فسوف يظهر هذا الرد فى النهاية فى صحيفة اليوم التالى باعتباره التفسير العالمى لتصرف الآلاف من المتعاملين فى الأوراق المالية فى أنحاء العالم.

فى عام 1994، كنت أعمل مراسلاً لصحيفة ***نيويورك تايمز*** لشئون التجارة والمال الدولية، حيث كنت أغطى محادثات تجارية بين الولايات المتحدة واليابان. كنت جالساً أتصفح البرقيات الإخبارية على جهاز الكمبيوتر عصر أحد الأيام، عندما لفت انتباهى خبران على وكالة أنباء رويترز، الواحد تلو الآخر:

ارتفاع سعر الإقفال للدولار وسط أجواء متفائلة بالمحادثات التجارية

نيويورك (رويترز) ـ ارتفع سعر الإقفال للدولار مقابل معظم العملات الرئيسية الجمعة مع تزايد التفاؤل باحتمال توصل واشنطن وطوكيو إلى اتفاقية تجارية.

انخفاض سعر الإقفال لأسهم بلو تشيبس وسط أجواء تشكك إزاء المحادثات التجارية:

نيويورك (رويترز) ـ انخفض سعر الإقفال لأسهم بلو تشيبس الجمعة وسط أجواء من التشكك إزاء المحادثات التجارية الأمريكية اليابانية قبل الموعد المحدد بمنتصف الليل لفرض عقوبات اقتصادية.

«هاى، أحمد، ماذا ترى عن المحادثات الأمريكية اليابانية؟»

إن ما كنت أقوم به فى تلك الأيام أثناء كتابة تقارير الطقس من بيروت، وما كانت تقوم به وكالة أنباء رويترز فى أخبارها الخاصة بأسعار الأسهم والعملات، هو محاولة لتنظيم الفوضى ـ بدون تحقيق نجاح لأى منا. كنت أعرف عندما بدأت العمل كاتب عمود فى الشئون الخارجية فى عام 1995 أننى قد لا أستمر فى هذا العمل كثيراً إذا اقتصر ما أقوم به من أجل تنظيم الفوضى على المعادل السياسى لمجرد تخمين حالة الطقس ودرجات الحرارة فى بيروت. إذن ما العمل؟ كيف يتسنى لى فهم وشرح نظام العولمة المركب بصورة يتعذر تصديقها؟

الرد باختصار هو أننى تعلمت أن المرء بحاجة إلى شيئين فى آن واحد: أن ينظر إلى العالم من منظور متعدد الأبعاد ومتعدد البؤرات، وأن ينقل فى الوقت نفسه هذا الوضع المركب إلى القراء فى أخبار بسيطة، وليس فى أخبار فخمة. وهذا هو السبب فى أننى أجيب على من يسألوننى عن كيفية تغطيتى لأخبار العالم هذه الأيام بأننى استخدم أسلوبين: «أقوم بمراجحة المعلومات» حتى يتسنى لى فهم العالم، ثم «أنقل الأخبار» حتى يتسنى لى شرحها.

دعنا ندقق فى كل من هاتين الوسيليتين. ما هى مراجحة المعلومات؟ إن كلمة مراجحة arbitrage مصطلح مستخدم فى أسواق المال. وهو يشير من الناحية الفنية إلى البيع والشراء فى آن واحد للأوراق المالية نفسها أو السلع أو لصرف العملات الأجنبية فى أسواق مختلفة للاستفادة من اختلاف الأسعار واختلاف المعلومات. والمراجح هو تاجر يعلم أن اللحم يباع بسعر دولار للرطل فى شيكاجو وبسعر 1.5دولار فى نيويورك، وهو بهذا يشتريها من شيكاجو ويبيعها فى نيويورك. ويستطيع المرء القيام بمثل هذه المراجحة بين الأسواق. ويستطيع المرء أن يفعل الشئ نفسه فى الأدب. لقد قيل إن الكاتب الأسبانى العظيم خوزيه أورتيجا إى جاسيت كان «يشترى المعلومات رخيصة فى لندن ويبيعها غالية فى أسبانيا». بمعنى أنه كان يتردد على جميع الصالونات العظيمة فى لندن ثم يترجم ما اكتسبه من رؤية ثاقبة هناك إلى الأسبانية للقراء الأسبان هناك فى بلاده. غير أنه سواء كنت تبيع اللحم أو رؤية ثاقبة فإن الوسيلة لكى تصبح مراجحاً ناجحاً هى أن تكون لديك شبكة متسعة من المعلومات وممن يكشفون عن المعلومات ثم تعرف كيف تركبها وتؤلف بينها بطريقة تحقق بها الربح.

وإذا كنت تريد أن تصبح مراسلاً أو كاتب عمود مؤثراً وأن تحاول فهم معنى ما يحدث فى الشئون العالمية اليوم، فعليك أن تكون قادراً على القيام بشئ مماثل. ذلك أنه فى هذا اليوم، أكثر من أى وقت مضى، تختفى تلك الحدود التقليدية بين السياسة

والثقافة والتكنولوجيا والمال والأمن القومى وعلوم البيئة. ولن يكون بوسعك فى كثير من الأحيان توضيح إحداها دون الإشارة إلى الأخريات، ولن تستطيع توضيح الأشياء كلها بدون الإشارة إليها جميعاً. ولذلك، فلكى تكون كاتب عمود أو مراسلاً مؤثراً فى الشئون الخارجية، عليك أن تتعلم كيف تراجح بين المعلومات من هذه المنظورات المتباينة ثم تنسجها معاً من أجل الخروج بصورة للعالم لم تكن لتحصل عليها قط إذا نظرت إليها من منظور واحد فقط. هذا إذن هو جوهر المراجحة بين المعلومات. إن القدرة على قراءة أوجه الارتباط ووصل الخطوط بين النقاط المتباعدة فى عالم أصبحنا جميعاً فيه على هذا القدر الكبير من الاتصال المتبادل هو القيمة المضافة الحقيقية التى يقدمها الصحفى. فإن لم تر أوجه الارتباط فلن ترى العالم.

لقد خلصت إلى هذا الأسلوب بمحض الصدفة تماماً، لأن التغييرات المتعاقبة فى عملى أجبرتنى على إضافة عدسة رؤية جديدة فوق الأخرى، لمجرد أن يتحقق لى البقاء فى عملى. وإليك ما حدث:

بدأت حياتى الصحفية كصحفى فى أضيق الحدود. ففى السنوات العشر الأولى من حياتى العملية قمت بتغطية «أم جميع الحروب القبلية» أى الصراع العربى الإسرائيلى، أولاً من بيروت ثم من القدس. فى تلك الأيام، كانت الصحافة بالنسبة لى عملية ذات بعدين بالضرورة. إنها تتعلق بالسياسة والثقافة، لأن الثقافة فى الشرق الأوسط هى التى تحدد نوع السياسة. بعبارة أخرى، كان العالم بالنسبة لى مجرد مراقبة الناس وهم يتشبثون بجذورهم واقتلاع جيرانهم من جذورهم.

ثم رحلت عن القدس فى عام 1988، بعد عشر سنوات قضيتها فى الشرق الأوسط، وقدمت إلى واشنطن، حيث أصبحت المراسل الدبلوماسى لصحيفة ***نيويورك تايمز***. وكانت أول مهمة أوكلت إلىّ لتغطيتها هى جلسة الاستماع بمجلس الشيوخ الخاصة بالموافقة على تعيين وزير الخارجية المرشح جيمس بيكر الثالث. وإننى لأشعر

بالحرج فى أن أقول إنه نظراً لأننى حاصل على شهادة الليسانس والماجستير فى الدراسات العربية والشرق أوسطية، ولأننى أمضيت معظم السنوات التى قضيتها فى مهنة الصحافة حتى الآن فى تغطية أنباء الشرق الأوسط، فلم أكن أعرف الكثير عن أى جزء آخر من العالم، وكنت بلا شك لا أعرف شيئاً عن معظم القضايا التى كان أعضاء مجلس الشيوخ يعتصرون السيد بيكر فى الإجابة عنها، مثل معاهدة خفض الأسلحة الاستراتيجية (ستارت)، ومنظمة الكونترا، وأنجولا، ومفاوضات الرقابة على الأسلحة بين القوات التقليدية فى أوروبا (CFE)، ومنظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو). لقد شعرت بدوار فى رأسى وأنا خارج من جلسة الاستماع. لم يكن لدىّ فكرة عن المقدمة التى سوف أبدأ بها تقريرى. بل إننى لم أكن أعرف معنى نصف اختصارات الأسماء التى ذكرت. لم أكن أعرف ما إذا كان رجال الكونترا معنا أم ضدنا، واعتقدت أن CFE، كانت خطأ هجائياً وأنها فى الواقع "Cafe" بدون حرف "a". وكل ما كان يدور فى رأسى، وأنا فى طريقى عائداً إلى مكتب ***التايمز***، عنوان عريض فى صحيفة ***واشنطن بوست*** صباح اليوم التالى عن شئ قاله بيكر لم يرد حتى ذكره فى التقرير الذى كتبته لصحيفتى. ولكن بفضل المساعدة التى قدمها لى مراسل ***التايمز*** فى البنتاجون مايكل جوردون، استطعت كتابة خبر متماسك فى ذلك اليوم. ولكننى أدركت حينئذ وفى تلك اللحظة أن الاقتصار على بعدين لن يصلح بعد الآن. ولحسن الحظ، استطعت إضافة بعد جديد إلى السياسة والثقافة وهو بعد الأمن القومى وتوازن القوى، وذلك بفضل السنوات الأربع التى عملت فيها بتغطية الأخبار الدبلوماسية وتضمنت أسفاراً وصلت إلى 500 ألف ميل مع بيكر. وقد شمل ذلك سلسلة المواضيع المترابطة التى تدور حول الرقابة على التسلح، وتنافس القوى الكبرى، وإدارة تحالف الحرب الباردة والجغرافيا السياسية للقوة. وبإضافتى لهذا البعد الجديد تحولت نظرتى السابقة ذات البعدين للعالم. أذكر مرة أننى كنت أصحب بيكر فى رحلة إلى إسرائيل، وطُلب إلى طائرته التحول لفترة وجيزة عن الهبوط فى مطار تل

أبيب و لذلك فقد حلقت فى شكل قوس كبير متسع فوق الضفة الغربية قبل عودتها إلى الهبوط فى المطار. وجدت نفسى أنظر من نافذة طائرة وزير الخارجية إلى أسفل نحو الضفة الغربية، وأنا أقول لنفسى «أتعرف، لم يعد هذا المكان، من حيث موازين القُوى البحتة، على هذا القدر من الأهمية. مكان مثير، نعم. ولكنه مهم من ناحية الجغرافيا السياسية، كلا».

بعد تلك الجولات التى قضيتها فى وزارة الخارجية، ثم تلك الفترة الوجيزة التى أشكر الله أنى قضيتها مراسلاً فى البيت الأبيض (لا أحد يستطيع أن يطلق على هذا العمل صحافة)، أضفت عدسة جديدة فى عام 1994 عندما طلبت منى صحيفة ***التايمز*** أن أبدأ سبقاً صحفياً جديداً من شأنه تغطية التداخل بين السياسة الخارجية والشئون المالية الدولية. فقد أصبح واضحاً بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى، أن المال والتجارة يلعبان دوراً أكبر فى تشكيل العلاقات الدولية. وقد كانت عملية السبق الصحفى الذى تحقق بإقرار التداخل المتبادل بين الاقتصاد ووضع سياسات الأمن القومى بمثابة تجربة خطيرة بالنسبة لى ولصحيفة ***التايمز*** على السواء. كنت من الناحية الفنية قد أوكل إلىّ مهمة المراسل فى وزارتى الخزانة والتجارة، بيد أنه على ضوء خبرتى فى تغطية أخبار وزارة الخارجية والبيت الأبيض، طُلب إلىّ الدمج بين أخبار هذه الجهات جميعاً. لقد كنا نصف هذا السبق أوصافاً مختلفة مثل «الدبلوماسية التجارية» أو « الشئون الخارجية والمال». ولقد اكتشفت وأنا أقف أمام هذا التداخل شيئين: أولاً أن هذا التداخل سوف يفرز كماً هائلاً من الأخبار مع انتهاء نظام الحرب الباردة. والشئ الآخر الذى اكتشفته هو أنه لا يوجد غيرى فى هذا الموقع. وبدلاً من ذلك، كان هناك الكثير من الصحفيين المختصين بالتجارة الذين لم يسبق لهم تغطية الشئون الدبلوماسية. وهناك الكثير من الصحفيين للشئون المالية الذين لم يسبق لهم تغطية شئون الأمن القومى. وهناك الكثير من الصحفيين الدبلوماسيين الذين

لم يسبق لهم تغطية الشئون المالية. وهناك أيضاً صحفيون فى البيت الأبيض لم يسبق لهم تغطية الشئون المالية أو الشئون الخارجية وليس عليهم سوى تغطية أخبار ما يقوله الرئيس أو يفعله.

كانت إضافة بُعد الأسواق المالية إلى السياسة والثقافة والأمن القومى، بالنسبة لى، مثل إضافة نظارات جديدة والنظر فجأة إلى العالم بأبعاد أربعة. ولقد رأيت بها قصصاً إخبارية لم أكن لأدرك من قبل أنها قصص إخبارية. رأيت أيادى خفية وأصفاد تقيد القادة والأمم عن فعل أشياء لم أكن لأتصورها من قبل.

بيد أنه لم ينقض وقت طويل إلا واكتشفت أن الأبعاد الأربعة ليست كافية. إذ بمجرد تكليفى بالعمل كاتب عمود للشئون الخارجية، أدركت تدريجياً أن القوة الدافعة وراء بزوغ وقوة الأسواق، وأن ما يعيد تشكيل الطريقة التى تتداخل بها أفعال الأمم والأفراد الواحد بالآخر، وأن الشئ الذى يمثل حقيقة جوهر العولمة، هو تلك الاكتشافات التكنولوجية الأخيرة ـ بدءاً من الإنترنت إلى الاتصالات عبر الأقمار الصناعية. أدركت أننى لا أستطيع أن أشرح لنفسى، ناهيك عن الشرح للقراء، القوى التى تشكل السياسات العالمية ما لم أفهم أولاً هذه التكنولوجيات التى تكسب الناس والشركات والحكومات القوة فى جميع أنواع الأساليب الجديدة. إن من يسيطر على السلاح فى مجتمع ما هو شخص له وضع خطير دائماً. أما من يسيطر على التليفونات وعلى كيفية عملها فهو شخص مهم أيضاً. إن حجم ما تمتلكه دولتك من قوات وأسلحة شئ خطير دائماً. غير أن حجم سعة الحزمة الموجودة فى شبكة الإنترنت لديك شئ مهم دائماً. ومن ثم فقد كان علىّ إضافة بُعد آخر وهو ـ التكنولوجيا ـ وأن أصبح صحفياً ينظر إلى الأشياء من خمسة أبعاد. وكان ذلك يعنى إضافة وادى السيليكون إلى قائمة عواصم العالم ـ موسكو، وبيجنج (بكين) ولندن والقدس ـ التى كنت أشعر بأهمية زيارتها مرة فى العام حتى يتسنى لى مسايرة الأحداث التى تجرى فيها.

وفى النهاية، فإننى كلما زادت مراقبتى لنظام العولمة أثناء تفاعله أصبح واضحاً أنه أطلق العنان لقوى التنمية الساحقة للغابات وعملية دائبة من فرض التجانس التى إذا تركت دون تحكم فإنها قادرة على تدمير البيئة واقتلاع الثقافات بسرعة لم يشهدها تاريخ البشرية من قبل. وأدركت تدريجياً أننى إذا لم أضع المنظور البيئى ذاك فى تحليلى للأحداث أكون بذلك قد أغفلت واحدة من القوى الرئيسية التى يمكن أن تحدّ من التنمية وتطلق العنان لردة ضد العولمة. ولذلك فقد أضفت البُعد السادس لمراجحة نفسى أى تثقيف نفسى فى علوم البيئة، وبدأت فى إضافة رحلات تتعلق بالجانب البيئى إلى أسفارى لكى أفهم كيفية تأثير النظم الأيكولوجية بالعولمة وكيف يؤثر تدهور هذه النظم فى العولمة.

والآن وقد اكتملت لى الأبعاد الستة، فلست أدرى ماذا بعد. ولكن إذا اتضح وجود بعد جديد فسوف أضيفه فى أى وقت. ذلك لأننى من «أنصار العولمة». فتلك هى مدرسة التفكير التى أنتمى إليها. وهذا يعنى أننى لست شخصاً واقعياً يفكر فى أنه يمكن تفسير كل شئ فى الشئون الخارجية بالسعى فى طلب القوة وميزة الجغرافيا السياسية ـ ولا أهمية عندى للأسواق فى هذا الصدد. كما أننى لست من أنصار البيئة الذين ينظرون إلى مصير العالم فقط من خلال منظور الرؤية البيئى وما يمكن عمله لإنقاذها ـ ولا أهمية عندى للتنمية فى هذا الصدد. وأنا لست من رجال التكنولوجيا ـ واحد من قطيع التكنولوچيا الذى يسكن وادى السيليكون ويعتقد أن التاريخ بدأ باختراع الميكروبروسسور وأن الإنترنت هى التى ستحدد مستقبل العلاقات الدولية ـ ولا أهمية للجغرافيا السياسية فى هذا الصدد. ولست أيضاً من المؤمنين بالأمور الجوهرية فأعتقد أنه يمكن تفسير سلوك الناس بتتبع الملامح الثقافية الجوهرية أو الصفات الوراثية الموجودة فى الحمض النووى (الدنا DNA)ـ ولا أهمية عندى للتكنولوجيا. ولست أيضاً رجل اقتصاد يعتقد أنه يمكن تفسير العالم بالإشارة فقط إلى الأسواق ـ ولا أهمية عندى للقوى السياسية والثقافة.

فى اعتقادى أن هذا النظام الجديد للعولمة يشكل جذرياً حالة جديدة للأمور، والطريقة الوحيدة لرؤيتها وفهمها وتفسيرها هى المراجحة بين كل هذه الأبعاد الستة التى عرضت لها آنفاً ـ أن نعطى أثقالاً مختلفة للمنظورات المختلفة فى الأوقات المختلفة وفى المواقف المختلفة، ولكن علينا أن نفهم أولاً أن التفاعل المتبادل بينها جميعاً هو السمة التى تحدد حقيقة العلاقات الدولية اليوم. ولذلك، فإن السبيل الوحيد لتكون جزءاً من العولمة هو أن تظل تربط بين النقاط بطريقة منتظمة، وأن ترى نظام العولمة ومن ثم تنظم الفوضى.

إذا كنت على خطأ إزاء هذا العالم فسرعان ما سيظهر ذلك. أما إذا لم أكن مخطئاً فسوف يكون لزاماً على كثيرين من الناس أن يعاودوا الذهاب إلى المدرسة من جديد. وفى اعتقادى أنه من المهم بصفة خاصة لكل من الصحفيين الذين أوكلت إليهم مهمة تفسير العالم، والاستراتيجيين المسئولين عن إعادة تشكيله، أن يفكروا كما يفكر المختصون بالعولمة. فهناك شبكة تتلاشى خيوطها باستمرار بين كل هذه العوالم والمؤسسات، و لذلك فإنه على الصحفيين والمختصين بالاستراتيجية أن يكونوا مثل هذه الشبكة التى تتلاشى خيوطها. والمؤسف أنه فى كل من مجالى الصحافة والبيئة الأكاديمية هناك ثمة اتجاه عميق الرسوخ للتفكير فى ضوء مجالات الخبرة شديدة الضيق والمقسمة إلى شرائح عديدة، يتجاهل حقيقة أن العالم الحقيقى ليس مقسماً إلى مثل هذه القطع الصغيرة المحددة بدقة، وأن الحدود بين الشئون الداخلية والدولية والسياسية والتكنولوجية تنهار جميعاً.

دعنى أقدم مثالاً واحداً. لقد ظلت إدارة كلينتون طوال سنوات، تهدد بفرض عقوبات تجارية على اليابان ما لم تقض على بعض التعريفات الجمركية الرسمية والخفية المفروضة على مجموعة من السلع. غير أنه فى كل مرة يبدو فيها ميكى كانتور الممثل التجارى الأمريكى الفاهم للأمور وقد فاز فى الجدل الدائر داخل الإدارة

باتخاذ إجراء، ويكون الرئيس على وشك أن ينزل العقاب باليابان حتى يتراجع فى اللحظة الأخيرة. وإليك ما أتخيل حدوثه داخل المكتب البيضاوى فى ذلك الوقت:

يدخل كانتور إلى المكتب البيضاوى ويجذب المقعد المجاور للرئيس ويقول: «سيدى الرئيس، إن هؤلاء اليابانيين الملاعين يواصلون إقامة الحواجز، إنهم يرفعونها فى مواجهتنا مرة أخرى. فهم لا يسمحون لصادراتنا بالدخول إلى بلادهم. لقد حان الوقت بالفعل لتمضى قدماً فى التنفيذ. العقوبات ياسيدى الرئيس. عقوبات رادعة. لقد حان الوقت لعقابهم. وهذا هو ما يستحقونه، وبالمناسبة، ياسيدى الرئيس، إن ذلك سيروق كثيراً لنقابات العمال وسيحبوننا بسببه».

وقد يرد عليه الرئيس بالقول: «ميكى، إنك على حق تماماً. امض قدماً فى تنفيذ ذلك». غير أنه ما أن يشرع كانتور فى مغادرة الحجرة لتنفيذ العقوبات ضد طوكيو حتى يدلف روبرت روبين وزير الخزانة الأمريكى من الباب الجانبى للمكتب البيضاوى.

قد يقول روبين: «آه، سيدى الرئيس، تعلم أننا إذا فرضنا عقوبات تجارية ضد اليابان فسوف يهبط سعر الدولار هبوطاً حاداً ويبدأ اليابانيون فى بيع جميع سندات الخزانة الأمريكية التى يحتفظون بها، وترتفع معدلات الفائدة الأمريكية فى الداخل».

حينئذ قد يلتفت الرئيس إلى كانتور، الذى يكون فى منتصف الطريق إلى باب الخروج، ويقول: «يو! ميكى، ميكى، ميكى، ارجع هنا لحظة. علينا أن نعيد التفكير فى ذلك».

قد يعود ميكى بعد بضعة أيام. ثم يعيد إثارة القضية نفسها. وفى هذه المرة قد يقتنع الرئيس تماماً. وقد يقول لكانتور، «لم أعد أحتمل هؤلاء اليابانيين بعد الآن. ميكى. العقوبات. امض قدماً فى التنفيذ».

وما أن يشرع كانتور فى الانصراف لتنفيذ العقوبات ضد طوكيو، حتى يدخل ويليام بيرى وزير الدفاع من الباب الجانبى للمكتب البيضاوى.

قد يقول بيرى: «آه، سيدى الرئيس. تعلم أننا إذا فرضنا عقوبات تجارية ضد اليابان، فلن يعيد اليابانيون التفاوض معنا بشأن اتفاقية قاعدتنا فى أوكيناوا، أو يقوموا بتعويض كوريا الشمالية عن ذلك المفاعل النووى، الأمر الذى نعول عليه كثيراً».

حينئذ قد يلتفت الرئيس فى حدة إلى كانتور الذى كان يحاول الخروج من الباب. «يو! ميكى، ميكى، ميكى. ارجع هنا لحظة. يجب أن نعيد التفكير فى ذلك».

هذا بالطبع مشهد تخيلته، بيد أننى أراهن بمبلغ كبير من المال على أنه يحمل شبهاً كبيراً بما كان يجرى بالفعل، والصحفى الذى يستطيع الإلمام بكل ما فيه على نحو سليم ونقله إلى القراء لن يكون هو المحرر التجارى أو المحرر المختص بوزارة الخزانة أو البنتاجون، وإنما هو شخص يتحرك جيئة وذهاباً، يراجح بين هذه المجالات الثلاثة فى آن واحد.

لقد قرر بول كينيدى وجون لويس جاديس مؤرخا العلاقات الدولية بجامعة ييل أن يجعلا تدريب الجيل التالى من الخبراء الاستراتيجيين فى أمريكا إحدى وظائفهما. ويرجع إليهما الفضل الكبير فى سعيهما من أجل التوسع فى المناهج التى يدرسانها بغية تخريج جيل جديد من الاستراتيجيين الذين يستطيعون التفكير كخبراء فى العولمة وليس مجرد خبراء فى شئ محدد فقط. وقد تحسر جاديس وكينيدى فى مقالة كتباها معاً على أنه غالباً يكون المتخصصون فى فروع محددة من المجالات، فى كثير من الدول، هم الذين يصنعون السياسة الخارجية ويحللونها.

كتب المؤرخان فى جامعة ييل: «يتمتع هؤلاء الناس، بكفاءة شديدة فى أخذ أجزاء من الصورة، ولكنهم يجدون صعوبة فى رؤية الشئ بأكمله. إنهم يرتبون أولوياتهم، ويتتبعونها على نحو منفصل وفى آن واحد، وبأدنى تفكير فى طريقة تقاطع

كل منها مع الأخرى. إنهم يتقدمون بثقة من شجرة إلى شجرة، ولكنهم يندهشون إذا وجدوا أنفسهم ضالين فى الغابة. فقد كان رجال الاستراتيجية العظماء فى الماضى يحتفظون برؤية للغابة وللأشجار على السواء. لقد كانت لهم نظرة عامة وكانوا على دراية واسعة بالمعرفة والمهارات فى مجالات عديدة، وكانوا يعملون من منظور إيكولوجى. كانوا يدركون أن العالم عبارة عن شبكة، إذا حدثت فيها أية تعديلات هنا فمن المؤكد أن تحدث تأثيراً هناك ـ وأن كل شئ مترابط بحيث تؤثر حركة أى جزء منه فى حركة باقى الأجزاء. ومع ذلك، أين نجد اليوم أصحاب النظرة العامة؟ .... إن الاتجاه السائد فى الجامعات ومؤسسات الفكر ينحو إلى مزيد من التضييق فى مجالات التخصص: أى الإعلاء من شأن العمل المتعمق فى مجال واحد بدلاً من العمل فى توسع فى عدة مجالات. ومع ذلك، فبدون بعض الإدراك بالكل، أى بدون بعض الوعى بمدى تأثير الوسائل على تحقيق الغايات سلباً أو إيجاباً، فلن تكون هناك استراتيجية. وبدون استراتيجية لن يكون هناك سوى الطوفان.

لقد بدأ بعض الناس فى اللحاق بهذا الاتجاه. وذلك هو السبب فى أن وكالة الأمن القومى فائقة السرية، التى تتنصت على أنحاء العالم، وتجمع كميات هائلة من المعلومات السرية، قررت فى أواخر التسعينيات أنه لابد لها من تغيير الشعار الداخلى لها فى تناول المعلومات من «الحاجة إلى المعرفة» الذى رفعته أثناء الحرب الباردة، بمعنى أنه لا بد لك من البحث عن المعلومات إذا كانت هناك ضرورة للعلم بها، إلى شعار «الحاجة إلى المشاركة»، بمعنى أننا لن نفهم قط الصورة الكبرى ما لم نتبادل جميعاً فهم صورنا الصغيرة.

ربما كان فى ذلك تفسير للسبب فى أننى تدريجياً كنت أجد بعضاً (وليس الكل قط) من أفضل مصادرى الفكرية هذه الأيام لا هم أساتذة فى العلاقات الدولية ولا دبلوماسيون من وزارة الخارجية بل هم بالأحرى ممن نجحوا حقيقة فى مدرسة

العولمة فى العالم اليوم ـ أى مديرو صناديق الحماية. لقد وجدت نفسى مشدوداً أكثر وأكثر إلى مديرى صناديق الحماية الأذكياء بدلاً من الدبلوماسيين والأساتذة، لأن أكثرهم كفاءة هم الذين يميلون إلى المزيد والمزيد من حسن الاطلاع على الشئون الدولية ولديهم القدرة والرغبة بطبيعتهم لمراجحة المعلومات واستيفائها من جميع الأبعاد الستة قبل التوصل إلى قرارتهم. ويعتبر روبرت جونسون، الذى اعتاد أن يكون شريكاً لجورج سوروس، من أفضل الأشخاص فى هذه المجموعة. لقد كنا جونسون وأنا دائماً نلاحظ أننا بعد أى مناقشة لنا نحلل فيها العالم، أننا نقوم أساساً بالعمل نفسه ـ والاختلاف الوحيد هو أنه فى آخر اليوم كان هو يضارب على سهم أو سند أما أنا فأكتب رأياً عن أحد جوانب العلاقات الدولية. ولكن كلينا كان يدرس بدقة عملية المراجحة نفسها حتى نصل إلى هدفنا.

ولئن كانت المراجحة بين المعلومات من أبعادها الستة هى أفضل طريقة لرؤية نظام العولمة، إلا أن أفضل طريقة لشرحها تكون غالباً بسرد أخبار بسيطة ـ ولهذا السبب سيجد القارئ أن هذا الكتاب ملئ بالأخبار. ذلك أن العولمة نظام شديد التركيب ربما يتعذر معه شرحه بالأخبار الضخمة وحدها. فالعولمة يصعب إدراكها. لقد ذكرت هذا فى إحدى الأمسيات أمام روبرت هورماتس، نائب رئيس شركة جولدمان زاكس إنترناشيونال فقدم وصفا دقيقاً لما أعنيه: «من الأجدى لك، إذا أردت فهم العولمة ثم شرحها بعد ذلك، أن ترى فى نفسك بدوياً مفكراً. ففى عالم البدو الرُّحل ليس هناك رقعة محددة بدقة من الأرض العشبية، ولذلك كان البدو الرحل هم الذين توصلوا إلى الأديان التوحيدية، اليهودية والإسلام. فإذا كان المرء مقيماً فى مكان واحد فسوف يتوصل إلى جميع أنواع الأساطير عن هذه الصخرة أو تلك الشجرة، وسيعتقد أن الله موجود فى هذه الصخرة أو تلك الشجرة فقط. أما البدو الرحل فإنهم يرون المزيد من العالم. إنهم يعرفون أن الله ليس فى هذه الصخرة. إنه موجود فى كل

مكان. كما ينقل البدو الرحل بعد ذلك، هذه الحقيقة المركبة فى قصص وأخبار بسيطة، وذلك عندما يجلسون حول نيران مخيمهم أو وهم ينتقلون من واحة إلى أخرى.

كان المندوب الصحفى أو كاتب العمود أو رجل الدولة فيما مضى يستطيع النجاح فى وظيفته بمجرد أن يرى أن هذه «السوق» تتمثل فقط فى مبنى الكونجرس، أو مبنى وزارة الخارجية أو البيت الأبيض أو البنتاجون أو وزارة الخزانة. ولكن السوق الحقيقية اليوم أصبحت تتمثل الآن فى كوكب الأرض وفى التكامل العالمى فى مجال التكنولوجيا والمال والتجارة والمعلومات على نحو يؤثر فى الأجور، ومعدلات الفائدة، ومستويات المعيشة، والثقافة، وفرص الوظائف، والحروب وأحوال الطقس فى أنحاء العالم. ولا يعنى ذلك أن نظام العولمة يفسر كل شئ يحدث فى العالم اليوم. إنه يعنى ببساطة أنه كلما كان نظام واحد يؤثر فى عدد أكبر من الناس بعدد أكبر من الطرق وفى آن واحد، فذلك النظام هو العولمة.

والمؤسف، أن نظام العولمة، ولأسباب سوف أوضحها فيما بعد، هبط علينا على نحو أسرع كثيراً من قدرتنا على إعادة تدريب أنفسنا على رؤيته وفهمه. تدبر فقط هذه الحقيقة: إن معظم الناس لم يسمعوا حتى عن الإنترنت فى عام 1990، وكان عدد ضئيل من الناس لديهم عنوان للبريد الإلكترونى E-mail فى ذلك الوقت. لقد كان ذلك هو الحال قبل تسع سنوات فقط! واليوم أصبحت الإنترنت والتليفونات الخلوية والبريد الإلكترونى أدوات لا غنى عنها لا يستطيع كثير من الناس، ليس فى الدول المتقدمة وحدها، تخيل الحياة بدونها. وإننى على ثقة من أن ذلك لا يختلف عن فترة بداية الحرب الباردة، ومع بداية ظهور الترسانات النووية ونظريات الردع. فقد استغرق القادة والمحللون فى تلك الحقبة وقتاً طويلاً ليدركوا تماماً حقيقة طبيعة وأبعاد نظام الحرب الباردة. فقد خرجوا من الحرب العالمية الثانية بفكرة أن هذه الحرب الكبرى

أفرزت عالماً من نوع جديد، بيد أنهم سرعان ما اكتشفوا أنها أرست الأساس لعالم شديد الاختلاف عن العالم الذى كانوا يتوقعونه. وكان الكثير مما كان يعتبر هندسة ووضع استراتيجيات عظيمة للحرب الباردة مجرد ردود أفعال سريعة للأحداث المتغيرة والتهديدات الناشئة. وقام خبراء الاستراتيجية لحقبة الحرب الباردة خطوة خطوة ببناء المؤسسات، والمفاهيم، وردود الأفعال التى عرفت فى النهاية بنظام الحرب الباردة.

ولا يختلف الأمر بالنسبة لنظام العولمة، فيما عدا أننا قد نستغرق وقتاً أطول فى استيعاب عقولنا له، لأن الأمر يحتاج إلى كثير من إعادة التدريب لمجرد رؤية هذا النظام ولأنه لا يدور فقط حول القوى العظمى بل أيضاً حول أسواق السوبر ماركت وحول الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى. قد أقول إننا فى عام 1999نفهم الآن عن الطريقة التى سيعمل بها نظام العولمة بقدر ما كنا نفهم عن الطريقة التى سيعمل بها نظام الحرب الباردة فى عام 1946 ـ ذلك العام الذى ألقى فيه ونستون تشرشل كلمة حذر فيها من أن «ستاراً حديدياً» بسبيله إلى النزول سوف يحجب نفوذ المنطقة السوفيتية عن أوروبا الغربية. وإذا أردت أن تقدر ضآلة عدد الذين يفهمون تماماً الطريقة التى يعمل بها هذا النظام، فما عليك إلا أن تتدبر فى حقيقة واحدة عجيبة: لقد اقتسم الاقتصاديان البارزان اللذان كانا يقدمان المشورة لصندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى وهما روبرت سى. ميرتون ومايرون إس. شولز جائزة نوبل للاقتصاد فى عام 1997، قبل عام تقريباً فقط من الخطأ الذى ارتكبه هذا الصندوق فى فهم طبيعة مخاطر السوق العالمية شديدة التكامل فى يومنا هذا مما جعله يمنى بأكبر خسائر فى تاريخ صناديق الحماية. إذن فلماذا حصل هذان الاقتصاديان فى صندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى على جائزة نوبل؟ حصلا عليها من أجل دراساتهما كيف يمكن للمستثمرين فى العالم استخدام الأدوات المالية المركبة المعروفة باسم المشتقات فى التغلب على المخاطر! لقد حصلا على جائزة نوبل لعام 1997 فى كيفية التغلب على المخاطر. وفى عام 1998 حصلا على جائزة المغفلين لما قاما به من خلق المخاطر ـ الرجلان ذاتهما، السوق نفسها، وعالم جديد.

لقد كان من رأى مورى جيل-مان الحائز على جائزة نوبل، والأستاذ السابق فى الفيزياء النظرية بجامعة كالتيك وأحد مؤسسى معهد سانتا فى، الذى قال فى سلسلة محاضرات إن ما أسميه أنا بالمراجحة بين المعلومات لا يختلف كثيراً عن الأسلوب الذى يتبعه العلماء فى محاولة فهم النظم المعقدة. وهو على حق. وليس هناك نظام سياسى اليوم أعقد من العولمة، وفهمها يتطلب من الصحفى ورجل الاستراتيجية أن يكونا على القدر نفسه من التعقيد والتركيب.

قال جيل-مان فى هذه المحاضرات: «لقد ظهرت هنا على كوكب الأرض، بمجرد تشكلها، نظم متزايدة التركيب والتعقيد نتيجة للتطور الفيزيائى للكوكب، والتطور البيولوجى، والتطور الثقافى البشرى. ولقد سارت العملية مشواراً بعيداً إلى درجة أننا نحن البشر نواجه الآن مشكلات إيكولوجية وسياسية واقتصادية واجتماعية بالغة التعقيد. وعندما نحاول التصدى لهذه المشكلات الصعبة، فإننا بطبيعة الحال نميل إلى تقسيمها إلى أجزاء أسهل فى التعامل معها. وهذا أسلوب مفيد، ولكن له أوجه قصور خطيرة. فعندما يتعامل المرء مع أى نظام لا خطى، ولا سيما إن كان مركباً، فإنه لا يستطيع قصر تفكيره على الأجزاء أو الجوانب أو مجرد جمع الأشياء معاً وأن يقول إن ذلك سلوك هذا وسلوك ذاك، وعند جمعهما معاً، يسفران عن الأمر برمته. لا بد للمرء، فى وجود نظام لا خطى مركب، أن يقسمه إلى أجزاء، ثم يدرس كل جانب، وبعد ذلك يدرس التفاعل الشديد جداً بينها جميعاً. فبهذه الطريقة وحدها يستطيع وصف النظام بأكمله».

هذا بالنسبة لى هو جوهر ما أعتبره مدرسة العولمة فى العلاقات الدولية. ولكن حتى يكون لدينا مدرسة عولمة فنحن بحاجة إلى مزيد من الطلبة والأساتذة والدبلوماسيين والصحفيين والجواسيس وعلماء الاجتماع المدربين لكى يكونوا رجال العولمة.

يقول جيل-مان: «نحن بحاجة إلى مجموعة كاملة من الناس الذين يرون أنه من المهم إلقاء نظرة إجمالية جادة ومحترفة على النظام بكامله. ولابد أن تكون نظرة إجمالية، لأنك لن تتمكن قط من السيطرة على كل جزء أو كل اتصال متبادل. قد تظن أن معظم الصحفيين يقومون بذلك. ولكنهم لا يفعلون. والمؤسف، أن لا تمنح المكانة فى كثير جداً من الأماكن فى مجتمعنا بما فى ذلك المؤسسات الأكاديمية ومعظم المؤسسات البيروقراطية، بالدرجة الأولى إلا لأولئك الذين يدرسون بعض الجوانب (الضيقة) لمشكلة ما، أو نوع ما من التجارة، أو من التكنولوجيا، أو الثقافة، بينما تقتصر مناقشة الصورة الكبرى على الأحاديث التى تدور فى حفلات الكوكتيل. هذا جنون. وما يجب علينا أن نتعلمه لا أن يكون لدينا متخصصون، وإنما أن يكون لدينا أيضاً أولئك الذين تخصصوا فى رصد التفاعلات المتبادلة القوية وتشابك الأبعاد المختلفة، ثم إلقاء نظرة إجمالية على الكل. فما كنا نعتبرها فى يوم من الأيام أشياء لا توجد إلا فى حفلات الكوكتيل هى نفسها الجزء الحاسم من القصة الحقيقية.

إذن، هيا بنا إلى حفل الكوكتيل الخاص بى.